الباب الأول

إشكاليات الواقع في الطرح الشّعري

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

قضايا الواقع الإسلامي

○ العلاقة بين الشعر والواقع:

العلاقة بين الإنسان والواقع علاقةٌ دراميّة، طرفاها ثائران ديناميكيان: فالواقع المحيط بالإنسان مُتغيّر، مُتجدّد، لكنه غير مكتمل. لحكمة من الله أرادت هذا الفراغ ليكمله الإنسان. وهو. أي الواقع. يحتاج إلى الفعل الإنساني.

والإنسانُ ذاته هذا الكائن دائم البحث عن الواقع الأفضل، دائم التبرم والشكوى من النقص، هو ذاته كائن ناقص، يصطدم بالواقع من جهتين: جهة بحثه عن الكمال ورفضه لنقص الواقع، وجهة نقصه التي يعي من خلالها أنّه لن يكفَّ لحظة عن البحث عن المثال، لسبب واحد هو أنه لن يعثر عليه، ولن يمسك به، لكنه محكوم عليه. اختياراً. بهذا البحث، وهذا الشغف.

○ وإذا كانت صلة الإنسان بالواقع، هي هذه الصلة الثائرة المتفاعلة الدراميّة، فإن علاقة الشعراء بالواقع، واستثارتهم منه أكثر تميّزاً وحدّة، وأكثر قوة نوعيّة وكميّة معاً. فالشاعرُ «لا يمعنُ النظرَ في الحاضر كما هو ويخرج القوانين التي تتناسب ونظام الأشياء الحاضرة، ولكنه ينظرُ إلى المستقبل من خلال الحاضر. وأفكاره هي أصول الزكرة، وثمرة العصر الأخيرة».[1]

(١) برس بيش شيللي. مقال (دفاع عن الشعر) من كتاب (مهمة الناقد) لوليم هازلت / سلسلة كتب ثقافية / ص٧٩.

والصلة التي نشيرُ إليها بين الشاعر والواقع ليست هي المعاينة الإحصائية للواقع، أو الرصد الآلي لأحداثه. إنّ الصّلة الحقيقية بين الشاعر والواقع، هي انشغال الشاعر بكليّة الواقع. والتفاعل معه بعين لاقطة ملاحظة، تنتبه إلى نقصه، فتستثار من هذا النقص، وتُهيّج، من ثمّ ـ النموذج المثالي القابع في ضمير الشاعر والذي يدفعه إلى الإبداع ليطرح الرؤى، ويرفض النقص ويُقدّم بديلاً جماليّاً للواقع المُستلب المستلب، فمهمة الشعر هي «دائماً طرح الأسئلة. لابد أن يكون الشعرُ نارَ الحلم التي لا تهدأ. هو النموذج الأبدي هو البحث الذي يظلّ بحثاً. هو إعادة النظر باستمرار»[1].

إنّ في داخل كل إنسان في الوجود نموذج مثالي للحياة قابع في فطرته مُودع في ضميره، وهو ينطلق في احتكاكه بالحياة من نقطة ضوء هذا النموذج، فيقيس الحياة واعياً ـ أو غير واع ـ بعرضها على هذا النموذج الذي أودعه الله الفطرة الإنسانية. ليعين الإنسان في رحلته وابتلائه ومهمته في الكون.

والشاعرُ، هذا الصّائغُ في طلب الكمال ـ الفني والمادي ـ أكثر الناس استشعاراً للمثال في جنباته، وأكثر الناس إحساساً بثقل المثال عليه، واندفاعاً إلى تجسيده في الوجود الإنساني.

والشاعرُ في كل هذا لا يتزيّى بزي الوعظ المباشر. ولا يهتم بالواقع باعتباره صاحبَ نفوذ فيه، أو صاحب موقع ماديّ بل بصفته حاملاً لقيم الجمال.

وهذه الصّفة للشاعر تتّسق مع ماهية الشعر باعتباره التعبير الجمالي المؤثر المُعبّر عن رؤية صاحبه للوجود الإنساني.

من هنا يتوحد الكيانان: الشعر والشاعر، يتوحدان في الماهية والغاية.

- من منطلق البحث عن المثال، والاكتمال من خلال تصوير المثال تصويراً جماليا في التجربة الشعرية يندفع الشعراء إلى التفاعل مع واقعهم، فهم يقدمون رؤاهم المثالية في التجربة الشعرية، وينادون بإحلال المثال محل الواقع البشري الناقص ولذلك، أذكر

(١) أدونيس /مجلة الهلال (المصرية) عدد سبتمبر ١٩٦٧م / ص ١٦١.

هنا ما توصّلتُ إليه في دراستي للقصيدة العربيّة المعاصرة من أن المبدع «يساهمُ بفعل إبداعي - إذا جازت التسمية - فهو يُقدّم «الحل الجمالي»[1].

- انطلاقاً من وجهة النّظر هذه، نستطيعُ أن نعتبر الشعر خاصة والإبداع - عامة - ثورة «لا بكونه يتحدثُ عن قضايا ثوريّة بل بكونه يحمل رؤية جديدة، بلغة جديدة»[2].

ويكونُ الشعر في هذه الحالة «هو الكلام ضد الكلام»[3].

وتتخذ مفردةُ «الكلام» في هذه الجملة أكثر من دلالة:

الكلام الذي هو النسق اللغوي الإيقاعي في الشعر، أو هو الأفكار والرؤى في الشعر، ... وهو في الحالين ضد كلام آخر (ينتجه) الواقع: ضد السائد في الفكر والشعور، والنظرة التقليدية السطحيّة للحياة.

○○○

(١) عرضتُ لهذه القضية في كتابي: «القصيدة العربيّة المعاصرة»: تحليل نقدي للبنية الفنية والفكرية / دار المطبوعات الجامعيّة / ٢٠٠٦م / ص١١٨.

(٢) أدونيس / سياسة الشعر / ص١٧٥.

(٣) أدونيس / مُقدّمة للشعر العربي / ص٧٨.

obeikandl.com

○ قياس جدوى الإبداع بصلاح الواقع في شعر الزهراني:

لازمةٌ شعريّة يُعاينها الناقد في شعر حسن الزهراني، وهي تأكيد ارتباط جدوى الإبداع بصلاح الواقع، أو لنقل تأكيد، قيمة الإبداع بمدى نجاح الإبداع في إصلاح الواقع.

إن الشاعر يضع مقياساً خاصاً للشاعريّة، ومقياساً خاصّاً لجدوى الشعر هو تلمُّس نجاح هذا الشعر في تغير الواقع إلى الأفضل، في دفعه للنمو، في دفعه إلى الضياء، إلى السّماء.

هذه الفكرة من اللوازم الفكرية في شعر حسن الزهراني، يراها الناقد في كثير من القصائد التي يخاطب فيها الشاعر شعره في مونولوج خاص، راجياً إياه أن يصمت وأن يكف حيث لا جدوى، ولا منارةٌ ولا أمل في هذا الواقع، ومن ثمّ: لا أمل في الشعر.

كما يعاين الناقد في شعره مواضع كثيرة يتوحّد فيها الشاعر وشعره في هم واحد، ولحظات اغتراب واكتئاب واحدة عند معاينتهما لمشكلات الواقع.

من هذه المواضع قصيدة (النداء الأخير) التي يُوجّه فيها هذا النداء إلى طرفين: إلى الأمة الإسلاميّة محذراً من الضعف والتخلي عن موقعها، والنداء الثاني إلى قلمه، إلى إبداعه حيث يرجوه بالكف عن البوح حتى يتغير هذا الواقع المؤلم. في (النداء الأخير) يقول الشاعر:

ناشدتُك الله بعد اليوم يا قلمي ... لا تكتبْ الشعرَ حتّى يشرقَ الأملْ

ويقول فيها:

أمّا إذا لم يكن فالصمتُ يا قلمي ... أولى إلى أن يواري حزنك الأجلُ[1]

- وإعتام الواقع مُدخل إلى شعور الشاعر باليأس من جدوى الشعر. هكذا يقول في قصيدته (سبت الحضيض) واصناً إحباطه من الواقع المحيط، وواصناً إحباطه من

(١) ديوان صدى الأشجان / ص٢٥

إبداع لا يستطيع أن يضيف إلى هذا الواقع أملا. يقول الشاعر:

«يا (سادن) الشيم
الزكيّة في ملاجئنا
لمن؟ ومتى
وكيف أقول
شعراً
في خريف الصدق
جُفت كلُ أوردة القصائد
والمعاني دون ألوان
وأقلامي تحجّر
نبضُها
وأنا أسيرُ
في وهاد الحزن
وحدي
لا مداد ولا ورق»[1]

و الانشغال بهموم الواقع، وصورته غير المثاليّة يدفع الشاعر إلى التخلّي عن (أناه)، عن همّه الخاص، فيبتكر في قصائده مطالع جديدة، معارضاً المُقدمَة الغزليّة للقصيدة العربيّة التقليديّة. معللا هذا معتذراً عنه بهموم الواقع الإسلامي، وكأنّ الشاعر يقترح على الشعراء المعاصرين مقدمات ومطالع جديدة تناسب واقعهم المؤلم، وتصدر عنه، وتلائمه، بديلاً لتلك المقدمات المليئة بمعاني الغزل وغيره.

يقول حسن الزهراني:

تحجّرتْ في فمي يا حلوتي الجملُ ... واسودّ في ناظري الحلم والأملُ
لا تطلبي من أسير الحزن قافيةً ... تشدو بحسنك أو يشدو بها الغزلُ
يا حلوتي: كيف لا يغتالني ألمي ... وكيف لا يحتوي أيامي الملل
أما ترين كلاب الصرب تنهش من ... أعراضنا، مالنا في أمرنا حيل
أما ترين «يهودا» في الخليل سطو ... على المصلين كم من ساجدٍ قتلوا[2]

(١) ديوان تماثل / ص ١٢٦ / ١٢٧.
(٢) ديوان صدى الأشجان / ص٢٢.

- مشكلات الواقع الإسلامي خاصة تحاصر الشاعر، وتفرضُ ذاتها بقوة على وعيه الإبداعي، من هنا تقتحم هذه المشكلات قصائده في تجاربها المختلفة. فيعاينُ الناقد هذه المشكلات في القصائد التي يصف فيها الشاعر رحلاته داخل مدن المملكة، وقصائده في مدح قادة المملكة ورموزها، وقصائده في وصف الملتقيات الثقافية الشعرية.

بل تتغلغل هذه المشكلات في القصائد التي يصف فيها واقعه الحياتي ويهديها إلى أبنائه في ميلادهم أو نجاحهم أو...

كذلك في قصائده الموجّهة إلى شباب المسلمين، وفي وصف الإبداع وماهية الشعر.

- المشكلات الإسلاميّة مُنغرسة في التجربة الشعرية للشاعر تتصدَّر كافة همومه وتتسيدها.
- من أبرز هموم الواقع الإسلامي شغلاً لهذه المجموعة الشعرية:

أولاً: الحق الإسلامي المُستلب، والمُصوَّر في ضياع المدن الإسلاميَّة التي تحمل قيمة رمزيّة دينية هامّة تتعدى قيمة المكان. على رأس هذه المدن (القدس السَّليبة) التي تبدو (الوجع الدائم) في هذا الشعر.

يقول الشاعر عند زيارته «لجازان» مُتدمًا نفسه للمدينة تقديماً جديداً بوصفة ذاتا موجوعة أدماها استلاب القدس، يقول:

أتيتُك يا جازان، شعري سفينتي
وقلبي لما في القدس من وجع يدمى[1]

- ويصف المواجعَ الإسلاميَّة باعتبارها المُحرِّض الأول لشعره، تحريضاً على الألم، والشدو الذي هو أقرب إلى البكاء. هذه المواجع تُوحِّد بين قلبه وشعره، يقول:

قلبي على فنن القوافي طائرٌ
يشدو فترهف سمعها الألحانْ
يبكي على (القدس) السليب وتارة
تنداح عبرَ دموعه لبنان
(كشميرُ) و(البلقان) في زفراته
تسري وتوقد حزنه (الشيشان)
كم بات موجوعاً يسامرُ همَّه
وتحيطُه الآهات والأحزانُ[2]

---

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص١٣٦.
(٢) نفس المرجع / ص٤٦.

- وفي طرح غير تقليدي لمشكلات الواقع الإسلامي. والعربي. يُهدي الشاعر إلى أبنائه في يوم ميلادهم هذه المشكلات ويُوصيهم بميراثه الدّامي، وبإرثهم المُفجّع.

ونقول إنّ هذا الطرح غيرُ تقليدي لأن معرضه غيرُ مُتوقّع.

ولأنّ سياق القصائد التي قالها الشاعر في أيام ميلاد أبنائه سياقات يُفترض فيها البهجة، والبشر، والتفاؤل، ويُفترضُ فيها ألاّ تُثير مثل هذه الأشجان. وألاّ تسلب الشاعر من هذه اللحظات الخاصة إلى (الهم العام). إنه طرح غير مُتوقع أن نبصر الشاعر في القصيدة ممسكاً بطفله الوليد فرحاً به، ونراه في ذات اللحظة يُوصيه بهموم المجتمع الإسلامي، وكأن قلب الشاعر قد انفطر وانشق وتصدّع من هذه الهموم. حتى أصبحَ عاجزاً عن تذوق الحياة الخاصة، وأصبح عاجزاً عن الهرب من هذا الواقع.

- كثيرة هي القصائد التي يتضافر فيها الإحساسان معاً: إحساس الشاعر بقدوم الحياة وبدئها، وامتداده هو زمنيا من خلال وليده، وإحساسه في ذات الوقت بمذاق الفناء والتراجع وتلاشي الكيان الإسلامي. البدءُ يذكره بالانتهاء. الميلاد يستدعي إلى ذاكرته وشعوره الموت. لحظة الفرح يغتالها الأسى والشجن المتوطن في الفؤاد.

يقول الشاعر في قصيدة (غبار الدموع) التي أهداها إلى ابنه «فيصل» في يوم مولده ـ ا:

(ولدي) فديتك جئتَ والدنيا على
كفّ الفجائع والهموم تزلزلُ
فتحجّرت قطراتُ دمعك حسرةً
فطريقُها منذ الولادة مقفلُ
عيناك يا ولدي رأت ما لم تر
أبصارنا والأمر حقاً مُذهلُ
أبصرت حال المسلمين وما جرى
من ذلهم، والذلُّ سهم يقتلُ[1]

(١) ديوان تماثل / ص٦٧، ٦٨.

- وفيما يُشبه لحظة الميلاد، في ليلة تأهب ابنته «سحر» لأول يوم دراسي في حياتها، يمزجُ الشاعر تهنئته لابنته، بتوصيته لها بهذا الإرث الثقيل، يقول شاعرنا:

غدا سيفتحُ بابُ الهمّ يا (سحرُ)

وتمتطي قلبَك الأعباءُ والكدرْ

غداً تسيرين في درب العناء كما

سرنا، ويُشقي خطا أحلامك السفرْ

غداً حقيبتك السوداء تملؤني

خوفاً، وتملؤها الأوراقُ والصور

غداً تُجرعك الأيامُ علقمها

ويرتمي فوق نامي صبرك الضجرُ

الشاعر في هذه الأبيات - وفي سائر القصيدة - لا يعدُّ ابنته في يومها الدراسي الأول بامتلاء حقيبتها بأسباب المسرَّة (الحلوى واللعب والدمى والبهجة) لا يعدها بالحياة، بل يعدها بالواقع الدَّامي المؤلم المحزن، ويُخبرها بما عاناه وكابده، وينبئها أو يبشرها بنظير ذلك.

ويأتي تكرار مفردة (غدا) تأكيداً لانشغاله بالمستقبل، بالآتي، حيث الغد هنا - وهو عنوان القصيدة - غد الطفلة في أول تجاربها الدراسية، وغد أبناء هذا الجيل، مستقبلهم الذي يراه الشاعر مُعتماً، محاصراً بالإعتام، الغدُ هنا هو باب الهم المفتوح، هو درب العناء، هو هذه الحقيبة السوداء المليئة بالخوف.

- في كثير من القصائد يتوسل شاعرنا بمرحلة الطفولة لتصوير رؤيته للواقع، وعرض استشرافه لمستقبل واقعنا الإسلامي، وسوف نعرض لمواضع تعتمد على ثيمة الطفولة، ورمز الطفل في الفصل الخاص بالصورة الفنية وأدواتها الرمزية - إن شاء الله - ولكننا نتوقف في هذا المعرض لنقول:

إنَّ توسل الشاعر بمرحلة الطفولة للتعبير عن تأزم الواقع لا يبدو مجرَّد اعتماد على الدلالة الشائعة للطفل باعتباره رمزاً للمستقبل بل يبدو احتفاءً واستثماراً لهذا الجزء الكامن في الشاعر، وفي كل إنسان هذا الموضع الحالم البريء من تكويننا الإنساني، هذا الموضع الذي يُعبِّر عن ذاته بحرية في خلوتنا، أو وجودنا مع مَن نأتمن، بعيداً عن أقنعة المجتمع واضطرارات الحياة.

كما أنَّ التعبير عن هموم الواقع من خلال نموذج الطفل إدانة لهذا الواقع، من خلال توظيف دلالة الطفل على البراءة التي هي في أساسها براءة من الوعي في المقام الأول، ومن ثمّ فإنَّ الشاعر حين يدهمُ براءة الأطفال بهذه الهموم إنما يُعبِّر عن إدانته للواقع الذي لم يترك مجالاً حتى لبراءة الأطفال.

- دلالة أخرى نلمحها في توظيف الشاعر لنموذج الأطفال في عرض قضاياه الواقعية، وهي انسجام تكوينه الشعري وصدق شعوره بالالتزام، إذ يتَّسق هذا التوظيف مع ما سوف نطرحه بعد صفحات من حرصه على أداء رسالة الشعر، وتصوير المثال للجيل القادم من الشباب، حرصه على بقاء الوعي لا غيابه.

ثانياً: الصورة السلبية للمسلمين:

- من أبرز مشكلات الواقع الإسلامي في شعر حسن الزهراني الصورة السَّلبية للمسلمين، إذ يدين في كثير من قصائده تخاذلهم، قبالة عدوهم المتربص بهم، كما يدين غفلتهم وسلبيتهم.

يعرض الشاعر هذه الصورة السَّلبية في قصيدته (السامريّ) مصوراً نموذجاً فريداً للعجل السَّمين، إذ يجعله مصنوعاً من ذات داء المسلمين: أي من تخاذلهم وضعفهم وخيانة السامريّ لهم. وكأنّه يقول في هذه القصيدة إنَّ العجل الذي أضلهم هو منهم وهذا هو أصل شقائهم. يقول الشاعر:

«إنا هنا

متقابلون على موائد صمتنا

نذرو حصاد عنائنا

لبيادر الجوعى

للوك حكاية

(القرصان)

يخطفُ كنز هيبتنا

لسُمّار التشفّي

في جزائر خوفنا

المنحوت في بحر الفياء

ونشمُّ رائحة الدماء

تُعطّر الأجواء

والشهداء.

ينتظرونَ فوق الأرصفة...

وقبورهم فتحت لهم أبواب لهفتها

بشوقٍ للضياء..

بُحّ النداء

بُحّ النداء

مُزج البكاءُ

مع العواء.

وتشكلت ألحانُ (سيمفونيّة)

الإرهاب في أوتار خيبتنا

وعُدنا في دياجينا

قليلاً للوراء

وحين أسفر صبحنا

عُدنا كثيراً للوراء.

عُدنا كثيراً للوراء.

نقولُ في غيبوبة عمياء.

للأعداء ملء خنوعنا

هل من مزيد، هل من مزيد.»[1]

(١) ديوان تماثل / ص١٤٠ / ص١٤١ / ص١٤٢.

obeikandl.com

تتضح إدانة الشاعر للمجتمع الإسلامي، من خلال صورة الأفعال المنسوبة للمسلمين - وهم يمثلون (الذات) - والأفعال المنسوبة إلى (الآخر) - أي العدو -. فالأفعال المنسوبة إلى المسلمين أفعالٌ سلبية تؤدي إلى هزيمتهم واستلابهم. أفعال تؤكد أنهم كيان غائب عن الفعل الإيجابي فيما يخفي الانتباه والحذر من الآخر.

أمّا أفعالُ الآخر، الذي أشار الشاعر إليه باسم (القرصان)، و(السامريّ) فهي أفعالٌ حقيقية أي منتجة ومثمرة من حيث تمخّضها عن المزيد من القوة، والمزيد من إضعاف المسلمين.

نتبيّنْ دقة طبيعة الأفعال في الشكل الآتي:

الفعل الإسلامي	دلالته	الفعل اليهودي	دلالته
١ - متقابلون على موائد صمتنا	الصمت	القرصان (يخطف كنز هيبتنا	القوة
٢ - نذرو حصاد عنائنا	الجهد		
٣ - لوك حكاية القرصان	الخوف		
٤ - نشم رائحة الدماء	العجز		
٥ - الشهداء ينتظرون فوق...	العجز والهزيمة		
٦ - بح النداء	العجز		
٧ - مُزج البكاء مع العواء	الهزيمة		
٨ - تشكل الحان الإرهاب	الاضطراب		
٩ - عُدنا في دياجينا للوراء	التراجع		
نقول في غيبوبة: هل من مزيد	الهزيمة		

من خلال الشكل السابق نلاحظ أنّ الأفعال المنسوبة للكتلة الإسلاميّة أكثر من مثيلاتها المنسوبة إلى اليهود. وهذا الفارق الكمي لا يدل على دلالة إيجابية. فالفعل اليهودي دال على القوة والنفاذ رغم قلته! ومن ثمّ تبدو الأفعال المنسوبة إلى الكتلة الإسلاميّة أفعالاً من الناحية النحويّة فتعل، - أي من ناحية تقسيم عناصر الكلم كما يقول النحويون - هي أفعال بالهيئة لا بالدلالة، لأنها تصف استلاب القوة، لا تدل على وجود قوة.

ثالثاً: تأصيل ملامح البطل العربي الإسلامي:

- في القصائد التي يخاطبُ فيها الشاعر قادة المملكة، ورموزها السياسية والفكرية والاجتماعيّة، نرى دلالتين هامَّتين تتعلقان بتضية تصوير الشعر لقضايا الواقع:

- **الدلالة الأولى:** وهي دلالة ظاهرة، وهي توجُّه الشاعر إلى هذه الشخصيات بالمديح والامتنان والإكبار، مبرزاً من خلال هذا كله جهودهم في سبيل إعلاء شأن المملكة، والحفاظ على وحدتها، وهو في هذا الخطاب الشعري يمتدح الوطن ورموزه معاً، يفخر بالمكان والإنسان.

- **الدلالة الثانية:** وتتبطّن الدلالة الأولى وهي غلبة الأصولية الشعرية على طرح الشاعر لهذا الموضوع، حيث يلمح المتلقي ويسمع المتلقي الصوت الشعري العربي القديم منطلقاً من حنجرة الشاعر، وهو يمتدح هذه الرموز، من خلال إبرازه لذات الخصال العربيّة النبيلة التي كانت تتردد في قصائد المديح التقليدية، وعلى رأسها: القوة والكرم والشجاعة، والنيل ونجدة الضعيف، وإيواء المحتاج... الخ.

ممّا جمعه العرب في كلمة (المروءة)، حيث دلّت هذه الكلمة على مجموع الفضائل أو الأخلاق الممتدحة في المجتمع العربي القديم.

يتبنّى الشاعر "المعيار القيمي" العربي القديم في وصفه لبطولة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في قصيدته "أغنية الريحان" حيثُ يقول فيها:

زارَ المجدُ فاستدار الزمانُ ... فإذا الكونُ كُلُّه عنفوان

وتجلّى (عبد العزيز) بسيفٍ ... ماتَ خوفاً لما رآه الجبانُ

وتجلى (عبدُ العزيز) لتروى ... من ينابيع صدقة الآذانُ

وبني صرحَ مجدنا في زمانٍ ... قلَّ فيه الإخوانُ والخلانُ

ثم سار الأبطالُ بعد أبيهم ... ما ثناهم عن عزمهم خوَّانُ[1]

---

١) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص١٢٧.

ويقول في قصيدة (تبوك المجد)، وهو يكرّس للبطولة صفات المجد والسّعد، والسؤدد، والعزة...:

لقد زادك (الفهدان) عزّاً ورفعةً
وزدت بما زادك شعري وأوراقي
وزادكِ (عبد الله) سعداً وسؤدداً
و(سلطان) إن حام الردى حصنك الواقي[1]

وفي احتفاليّة بمرور مئة عام على توحيد المملكة يبرز الشاعر في رموز أبطال المملكة الصفات العربية الأصيلة وعلى رأسها: القوة والشمم والكرم، يقول:

مئةٌ
يُروّض خيلها
صقرُ الجزيرة
يمتطي صهواتها
الأفذاذ
يقدمهم
(سعود) السُّعد
ينهضُ
(فيصلُ) التاريخ
يُقبلُ
(خالد) الإحسان
يُشرقُ
(فهدنا) فهدُ
التقدم والرخاء
وحوله أسدُ العرين،[2]

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص١٢١.
(٢) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص٩٢، ٩٣.

والبحلل في الطرح الشعري لحسن الزهراني يحمل سمات النموذج العربي القديم: السمات الشكلية، والنفسية الخلقية، فهو وضّاح الجبين يسمو إلى المجد والمعالي. هكذا البحلل في قول الشاعر:

«عبد العزيز
وتضحكُ الأعوام
في فرحٍ
وترفع كفها الجبّارُ
إجلالاً وتقديرا
لذكر الفارس المغوار
وضّاح الجبين
ها نحن
يا صقر الجزيرة
مثلما خططت
سرنا للمعالي
دونما خوفٍ
و لا كلل
وأرشدنا إليها
السائرين»[1]

ويقول مُكْبرا شخصية الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ـ وقت أن كانَ وليًّا للعهد ـ عند زيارته للباحة في قصيدة (الليث والجوهرة):

وعبدُ الله للأمجاد ليثٌ ... يُعلّي شانها يحمي حماها
ولي العهد يا رمز المعالي ... ومن دانت لهمّته ذُراها
ويامن كفّه بالجود تهمي ... فيبلغ كلّ قاصيةٍ نداها[2]

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص٩٤، ٩٣.
(٢) الديوان السابق / ص٢٥.

obeikandl.com

وإلى جوار هذه الخصال العربيّة المحمودة للبطل يُكرّس شاعرنا سمات البطولة الإسلامية: الإيمان، الحلم، العفو، الانتصار للحق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مراقبة الله، القيام بأمر الرعية وغير ذالك من صفات إسلامية أضافها الإسلام إلى ما كان محموداً من أخلاق العرب قديماً.

وتتردد هذه السمات الإسلاميّة والعربية في قصائد حسن الزهراني المُوجَّهة إلى ملوك وأمراء المملكة، لتشكل في مجموعها لوحة رائعة للبطل الإسلامي العربي: المُعاين والمرتجي، أي البطل الملموس في الواقع، والمرتجي في الضمير كمثالٍ ونموذج.

يقول الشاعر في قصيدة (قبلة في جبين القبلة):

مازال (عبد العزيز) اليومَ في دمنا
ينسابُ بين هضاب الشام واليمن
إحدى يديه بها المرجانُ ناصعة
ولؤلؤ في اليد الأخرى على السفن
وفوق هامته الشماء مصحفه
ورايةُ الحق نورٌ في دجى الإحن
بنى على العدل والإحسان دولته
وكان سهماً على الأحقاد والفتن
وخطَّ دستورها من هدى خالقه
فرفرف الأمنُ في الصحراء والمدن[1]

وكذلك يبرزُ البطل العربي الإسلامي في تلك (اللوحة الشعرية) التي صاغها ورسمها الشاعر للملك فهد خادم الحرمين الشريفين، حين يقول:

في كل شبر من جزيرتنا صرحٌ يلوحُ ومعلمٌ يشدو
ومآذن البيتين شاهدةٌ بسخاء بذلٍ ماله حدُّ
يا سيدي في ظل حكمتكم سادَ الأمان وعيشنا رغدُ

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص٧

وهو أيضاً السيف / القوة الحامية لهذا الدين، ولهذا الوطن، كما يمتدحه في ذات القصيدة، قائلاً:

يا سيفنا البتّار إن صرخت ... ساح الوغى وتواثب الجندُ
سيفٌ كضوء الشمس لمعتُه ... ما ضمّه في ليله غمدُ
يا ليتنا المقدام كم نمنا ... في راحةٍ، وأضرّك السهدُ[1]

o والشاعر لا يكتفي باستحضار المعيار العربي في تقييم البطل، بل إنه يستعيد ذات المفردات التي كان يوُصف بها البطل في الشعر العربي القديم، فالبطل شمسٌ، وكوكبٌ، وبحرٌ.

يقول الشاعر في مديح خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله:

كوكبُ السعد جاءكم في وقارٍ ... فتجلّى على الوجود ضياءُ

ويقول:

أنتَ بحرٌ من الخصال، وشعري ... زورقٌ ما لشوقه ميناءُ

ويقول:

أنت شمسٌ تضيء في كل أرضٍ ... أنت للموجعين منا دواءُ[2]

إنه لا يستدعي إلى ذاكرتنا صوت النابغة الذبياني فقط حين يقول مادحاً

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ ... إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ

إنه لا يستدعي هذا الصوت فقط، بل يستدعي الذاكرة التراثية في تقييمها للبطل عامة، بما يدل على تملك الوعي التراثي لذاكرة الشاعر، وذوقه، وقيمه، وفي ذلك نؤكد أنه لا يتزيى بالتراث. إذا كان التزيّي يعني ملامسة الثوب للجسد خارجياً فقط. بل نقول إنه يتلبس التراث ويعيشه ويعتنق كثيراً من قيمه ورؤاه في هذا الجانب

في قصيدته ((أغنية الريحان)) تتصّدر السمات الإسلامية اللوحة التي رسمها شاعرنا للملك فهد - رحمه الله - يقول:

قائد مؤمنٌ وشهمٌ وأبيٌّ ... ومُحياه للنّدى عنوانُ
جعل الدين نصبَ عينيه نورا ... فتولّى توفيقه الرحمن
نشر الفهدُ راية العدل حتى ... ساد فينا الأمان والإيمانُ
أشرقت بالسرور شمسُ سلامٍ ... في بلادٍ دستورها القرآنُ[3]

---

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص١٣ / ١٤.
(٢) ديوان قبلة في حنين القبلة / ص٢٢.
(٣) ديوان قبلة في جنين القبلة / ص١٢٨.

إن تكريس صفات البطل الإسلامي والعربي في الشعر، يدل على وعي الشاعر برسالته الشعرية، إذ يبرز من خلال مدائحه لرموز المجتمع وقادته الصورة المثالية للبطل. يُبرز القدوة والنموذج الذي تمنّى من ملامسته أنه يستمر في الواقع. وتمنّى من خلال وصفه في الشعر أن يخلّده اهتداءً لمن بعده. وقياساً يصعبُ الخروج عليه.

وإذا كان بعض النقاد العرب قد افترض أن مغالاة الشاعر العربي القديم في وصف الممدوح قد أتته من الرغبة في تجسيد المثال الشعري في الشخصية الواقعية. وكأنه يلزم الممدوح بهذه الصورة ويقول له: كُن على هذه الصورة. فالشاعر العربي المعاصر أكثر إدراكاً لهذه المعاني التجريدية المطلقة مثل:

المثال، والنموذج وهو مع ذلك أكثر واقعية واتزاناً في مدح الأبطال والرموز الاجتماعية، وذلك لاشتماله على الحسنيين: المثالية الفطرية أي المثالية المودعة في الفطرة، والمثالية الواعية التي كوّنتها التجارب والخبرات المعرفية.

- القدوة والمثال في الشخصية العربية والإسلامية قدّمها الشاعر من خلال نماذج أخرى في المجتمع لها موقع القيادة، والمسؤولية والتوجيه، ولها خطورتها في التأثير، لأنها محل تقليد وإكبار. وثقه قدّم شاعرنا المثال من خلال شخصية (المعلم) الذي نطالع ملامحه في قصيدة (الشرف الأسمى) ونراها ملامح منحوتة نحتاً شعرياً يقتربُ بها من الجمال المطلق، والمثال المطلق الذي صوّره اليونانُ في فنونهم. المعلم في هذه القصيدة هو القيم المطلقة. وليس الجسد والمادة. هو الحزم والصبر. والعطاء غير المحدود، وهو النبل، والبذل والتسامي على البشرية. يقول الشاعر:

يمينك سيفٌ يرهبُ الجهلُ حزمها
وصدرك من ساح المحيطين أرحبُ
فؤادك مأوى للحيارى يضمُّهم
وعطفك نهرٌ من ذرا الود يشربُ
وأعصابك السمرُ الفتية سُلمٌ
لأحلامنا تسمو عليها وتدأبُ

ويقـــول:

نـراك قـريباً بيننـا في تواضـعٍ
وأنت إلى الجوزاء في القدر أقربُ[1]

تُنيرُ لنا عـمر السـرور ببسـمةٍ
تفيضُ حنـانـاً كـل صبح وتعذبُ

فتفـتـح أبواب الحـياة لسـعينا
وقـلبك من طـول العنـاء معذبُ

من ذات المنطلق: الرسالة الاجتماعية للشعر، يصف الشاعر ((هموم المعلم))[2] والإعاقات التي تكبل يده، وتعيده إلى الواقع، وتمنعه من الوصول إلى آفاق المثال.

وهو ذات منطلقه في قصيدة ((هموم المدير))[3] التي قد لا تروق في مدار اهتمامها هي ومثيلاتها المعارضين لمبدأ الالتزام في الشعر ولكنا نراها صادقة في تعبيرها عن مجموع الرؤية الشعرية للشاعر ونراها منسجمة مع مفهومه لدور الشعر. كما نراها تتسق مع الموقع النبيل المفترض للشاعر خاصة وللمبدعين عامة في الحياة الإنسانية. الشعور بالالتزام والمسؤولية، والحرص على تكريس المثال يدفع الشاعر إلى الكتابة للشباب في قصيدة تذكرنا بالمعاني التي دار حولها الشعر الواقعي في الخمسينات والستينات من القرن العشرين.

يقول الشاعر:

«قل للشباب»

صروح المجد يبنيها الشبابْ ونور الشـمس يرهبه الضبابْ
إذا عزم الشباب على محالٍ فصلبُ صخـور قسـوته سرابْ
وإن صَلحَ الشبابُ فكلُ خيرٍ نـؤمـلـه إذا صـلـح الـشـبـابْ
لهذا جئت أسمعهم نشيدي واسـأل لا يفـاتـحني الجـوابْ
ألستم خير كنز في بـلادي بلى: ويقود بوصلتي الصواب[4]

الالتزام هو مبدأ الشاعر، أمانة الكلمة ودورها المسؤول في الحياة هو همه الإبداعي الذي يدفعه إلى نحت المثال، نحت النموذج إبداعياً ليؤكد رسالة الشعر في التحريض على الخير والحق والجمال.

---

(١) ديوان تماثل / ص٧٩-٨١.
(٢) ديوان صدى الأشجان / ص٦٩
(٣) ديوان صدى الأشجان / ص١٢٥
(٤) ديوان قبلة في جبين التبلة / ص٨٢.

الفصل الثاني

قضايا الواقع الاجتماعي

- في **رحلته الشعرية**، بدءاً من ديوان ((أنت الحب)) الصادر ١٤٠٩هـ وحتى ديوان ((أوصاب السحاب)) الصادر ١٤٢٧هـ يتسم طرحه الشعري لقضايا الواقع الاجتماعية والسياسية، بسمة الأصولية التي نعني بها: امتداد المفهوم العربي القديم لدور الشاعر في المجتمع، وقيمته في هذا المجتمع، باعتباره حاملاً لرسالة وهي رسالة هامة جادة، لا تقل أهمية عن الدفاع عن حياة المجتمع وإدارة شؤونه.
- يعالج الشاعر حسن الزهراني قضايا الواقع في شعره باعتباره (صوت) الضمير الجمعي، المُعبّر عن خلجات المجتمع ودقائقه وهمومه وهو يعيد إلينا في هذه المعالجة المفهوم العربي القديم لمكانة الشاعر حيث كان صوت القبيلة الذائد عن أعراضها، الشادي بمحاسنها ومناقبها، والعين الراصدة لأحداثها وأيامها ومفاخرها، المسجلة لآثارها، وآبارها، وأيامها وآلامها.
- الإحساس بعبء التعبير عن الضمير الجمعي، يهيمن على هذا الشعر ويحتل موقعاً كبيراً منه، ويبدو سافراً في كثير من القصائد بل وكثير من المواضع التي لا نتوقع أن نجد فيها هذا الهم.

فعلى سبيل المثال يقول الشاعر في إهداء ديوانه قطاف الشفاف - وهو من دواوينه الشعرية المتأخرة حيث صدر ١٤٢٧هـ يقول:

آمال روحي مزّقت آلامها
وترنمت بمشاعر الآلاف
تحدو خطاها خلف أسمى راية
رفعت لواء الصدق والإنصاف[1]

(١) ديوان قطاف الشفاف / ص٥

أولاً: تخليد ملامح الوطن في القصيدة:

وإن انشغال الشاعر وإيمانه بخطورة دوره في المجتمع، ومسؤوليته عنه كما استقر في الوعي العربي القديم، يصل إلى حد التبني لهذا المفهوم ولهذا الدور.

- يتضح هذا التبني في حرص الشاعر على رصد ملامح الوطن المكان وتخليد الآثار كما كان في الشعر العربي القديم الذي سُجلت فيه أسماء المواقع والآبار وملامح الصحراء، وأسماء كائناتها.

نجدُ هذا المنزع في شعر حسن الزهراني في كثير من مراحله الشعرية.

وكما عمد امرؤ القيس إلى رصد، وتسجيل الأماكن في قوله:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

يعمدُ حسن الزهراني إلى ذات المنهج في قصائده، مثل قصيدته ((الموج والأحلام)) التي يبتدئها بافتتانه بملامح الأرض الوطن، ووصف شغفه بهذه الملامح راصداً لها، يقول:

فسقتْ أسراب أبياتي محملة

بالشيح والرند، والريحان تأتزرُ[1]

وكذلك في قصيدته ((بين شدا وذي عين)) التي يدل عنوانها على عشق المكان، وتتبعه، وتخليده، كما كان في الشعر العربي القديم. يقول الشاعر:

شدوت على (شدا) ألحان شعري ... فخلت البحر يضطرب اضطرابا

وفي (ذي عين) ينبوع المعاني ... مع الأنغام ينساب انسيابا

وترقص كل أبياتي سرورا ... وتفتح في سماء السحر بابا

يحليها أريج (البرك) تاجا ... ويلبسها شدا (الكادي) ثيابا

تكحل عينها المخواة حبا ... ويغدو في أناملها خضابا

فتخطر في شراييني بزهوٍ ... يحيل صخور حيرتها رضابا[2]

---

(١) ديوان قبلة في جبن القبلة / ص١٢٤

(٢) ديوان قبلة في جبن القبلة / ص١١٧ / ١١٨

o ويتابع الشاعر في قصيدته ((الموج والأحلام والقمر) مدن المملكة بشغف المحب الواصل للحمة الوطن، يقول:

الليل والموج والأحلام والقمر

والشعر، الطار، والموال والوتر

والغوص واللؤلؤ المكنون والخطر

والمجد والساحل الشرقي والعبر

والنخل، والنبع، والأحساء ناطقة

بالخير والحسن والظهران والخبر

وسامقات الجباه السمر مشرقة

لها من العزم في تاريخنا عبر[1]

وهو يستعيد في هذه القصيدة صوت الشاعر العربي، القديم الذي يصوب راحلته جهة الأحبة قاطعاً بها الصحراء، فيصف حسن الزهراني راحلته في هذه القصيدة بأنها صوت الأحبة من الشعراء وأبناء الوطن ومن هنا لا يقف عن حد استعادة (الثيمة) الشعرية القديمة:أي ثيمة الرحلة في الفكرة فقط، بل ويستعيد مفرداتها التعبيرية فيقول:

وجئتكم من جنوب الشعر، راحلتي

شوقي إليكم، وبعض الشوق ينتظر

ويؤكد لنا أن دواعي رصده لملامح الوطن هي الشغف والاعتزاز أيضاً فيقول في ذات القصيدة:

وأرضنا خير أرض الله قاطبةً

وخيرنا فوق من يحتاجه مطر

---

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة / ١٢٢.

وفي قصيدته ((تبوك المجد)) يؤكد الشاعر قدرته على استعادة الصوت الشعري القديم وتبنيه ممتزجاً بمشاعره الخاصة تجاه وطنه. فيصف (تبوك) رمزاً للفخر. والمجد. وعزة الوطن فيقول:

لك المجد والتاريخ. والحاضر الراقي
ولي نغماتُ الحب من عزف أشواقي[1]
ألا يا تبوك الفخر والطهر سطري
حروف البهاء العذب من بوح أعماقي

ويقول في موضع آخر:

أتيتك يا جازان طيفاً مغرداً
فمدي يداً بيضاء ما قارفت إثما[2]

وتستوقفه (الباحة): مدينته في أكثر من موضع منها قصيدة ((صباح البشر يا وطن)) فيقول فيها:

يا (باحة) الحب. نهر الحب منبعه
من ها هنا. دفقه مازال منداحا[3]
يا (باحة) الحسن. وجه الحسن مشرقه
من ها هنا. شاهدته الشمس وضاحا

وفي قصيدة: (الشجن الطائف على رياض الطائف) يتابع الشاعر بوعي عربي وذاكرة شعرية عربية تراثية مواقع المكان باعتبارها مواضع المجد وزهو الشعر، يقول:

يا (طائف) الأحلام يا من له
مابين أهداب الهوى منزل
(عكاظ) مازال على رفرف
خضر، ووشم المجد لا يُجهل

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة ص / ١٣٠.
(٢) ديوان قبلة في جبين القبلة ص / ١٣٤.
(٣) ديوان قبلة في جبين القبلة ص / ١١٠

لعاديات البوح في ثغرد
مضمار شوق وجهه أشهل
ذاكرة التاريخ مملوءة
من عبقري الشعر تستنهل
سل (وج) عن ماضٍ، وعن حاضرٍ
يأتيك بالأنباء مستقبل
سل (العقيق) الحُر عن موعدٍ
للحب والأحباب قد أقبلوا[1]

إن هذه المواضع وغيرها من شعر حسن الزهراني كافية لاقتراح النقد مسمى (ظاهرة الاحتفاء بالمكان) في هذا الشعر، باعتبارها موضوعاً متصلاً بذاكرته التراثية من جهة، ومرتكزاً على يقينه بالدور الاجتماعي للشاعر الذي يصل إلى حد احتضان المكان، والانشغال بالمكان بذات درجة الانشغال بالإنسان.

والناقد يستشعر وراء هذه الظاهرة دافع الإيمان بالرسالة الاجتماعية للشعر التي تتضمن حب تفاصيل الوطن، ونزعة الانتماء إليه باعتباره قيماً ومواقف. لا أماكن خالية من المعنى.

كذلك يستشعر الناقد دافعاً إنسانياً يقف وراء هذه الظاهرة هو النزوع الدائم إلى فكرة الخلود في كل أشكالها ومنها تخليد المكان هرباً من هاجس الفناء والتلاشي والتغير الذي يلحق الأشياء والذوات.

ooo

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة ص / ١٠٦.

ثانياً: التوحد بالوطن:

في قصيدة من أجمل قصائده الوطنية وهي قصيدة: «قف واغتسل بدمي» يتوحد الشاعر بوطنه باعتباره جزءاً من تكوين الشاعر، من دمائه، وتكوينه. وهو يصور وطنه مثاراً لفخره، ومصدراً للطهر والنقاء في هذا الزمن، يقول الشاعر:

قف في جبين الضوء يا وطني ... وامدد شعاع الطهر في زمني
قف في فؤادي واستمع لصدى ... أشجانه، ينبيك عن شجني
قف في شرايني، وأوردتي ... في سائر الأجزاء من بدني
قف واغتسل بدمي لتمنحني ... نور الشموخ العذب يا وطني[1]

في هذه الابتهالية المميزة، يرجو الشاعر من وطنه أن ينصب قامته في (جبين الضوء)، (فؤاده)، (وشرايينه). إنه يوقف وطنه في: الضياء، وفي مشاعره، وشرايينه وإبداعه راجياً له من خلال الانتصاب في هذه الأماكن الخاصة: البهاء والشموخ.

هذا الامتزاج بين الشاعر والوطن يُطرح في مواضع أخرى من شعره، نعاين فيها الوطن حبيباً، ولكنه حبيب غير تقليدي، لأنه مصدر للسعادة، لا للشك والشقاء. الوطن هنا حبٌ دائم وخلاص من العذاب الإنساني. يقول الشاعر:

قف واستمع لغناء قافيتي ... بهواك، إن هواك من سنني
ما زال لحنُ هواك يرسله ... (ناي) المنى في السرّ والعلن
يستلُّ روحي من كآبتها ... ويجيرها من عاصف الحزن

والوطن ملهم الشعر، ومثير الإبداع في رؤية الزهراني الذي يربط في قصيدته «فراشة القلب وزهور الوطن» بين حبه لوطنه، وتفجره الشعري. يقول:

تناسقتْ في بديع الشعر أوزانُ ... وغرّدت في شفيف الشدو ألحانْ
وحلقت في سماء العشق نورسةٌ ... وعانقت هادئ الأمواج شطآنْ
وانسابَ هذا النسيمُ العذب متشحاً ... جلبابَ عطرٍ وماستْ فيه أغصانْ
وطابَ ليلُ الهوى في عين قافيتي ... ففاح من ثغرها شوقٌ وأشجانْ
أنا ابنُ هذا التراب الحرّ في خلدي ... حبٌ له في صميم القلب أركانْ

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص١٢٩.

ويسترسل الشاعر في بثية القصيدة في وصف ربوع وطنه، مُوزّعاً كيانه وقلبه عليها، مؤكّداً حبّه، انتماءه، تجذره، رغبته الشديدة في الالتحام والتوحد في جذور الأرض، يقول:

أنا ابن (مكة) نهرُ النور في كبدي
مسترسلٌ وله طعمٌ وألوان
من (طيبة) الطهر في عينيّ قافلةٌ
طريقُها للخطا البيضاء عطشانُ
أنا من الساحل الغربي تسكنني
(حقلُ) وترقصُ في الأنفاس جازان
أنا من الساحل الشرقي قافيتي
لآلئٌ ومواويل ومرجان
أنا من (الباحة) الغنّاء في نغمي
حمائمٌ وينابيعٌ وبستانُ

ويستمر الشاعرُ في ربط لُحمته بلحمة وطنه، حتى يصلَ إلى المعنى الذي أراد، وهو عشق الوطن بكل تفاصيله.

يقول:

وُلدتُ من كل شبرٍ من ثرى وطني
وعشقُه في دمي خيلٌ وميدانُ[1]

يصل هذا العشق إلى حدّ أن يصبح الوطنُ في شعر حسن الزهراني بديلاً للحبيبة، وإلى حدّ أن يستقل الوطن بمطلع غزلي في بعض قصائده بما له من دلالة على قدرة الشاعر على المزج بين استلهامه لتراثه الشعري وبين موضوعاته الشعرية الخاصّة، بما سنعالجه في الفصل الخاص بالبنية الفنية للقصيدة في شعره.

يقول الشاعر مبتدئا بمطلع غزلي للحبيبة / الوطن:

أجيبي إن قلبي قد أجابا ... نداءَ الحبّ حين صفا وطابا
أجيبي إن قلبي ضاق ذرعاً ... بصمتك فارحمي قلباً مصابا
أجيبي يا تهامة إن قلبي ... ورب البيت قد سئم العذابا[2]

(١) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص٢٨.
(٢) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص١١٥.

ثالثاً: اضطراب المعايير واغتراب المثال:

- لم ينسَ حسن الزهراني ما كان عليه الشاعر العربي القديم من مجد ومقام، وكيف كان سيِّد القوم ورائيهم، ولسانَ حالهم. إعلامهم، وإعلانهم، عزاءهم وبشراهم. لم ينس كيف كان الشاعر الذائد عن حياض القوم وأعراضهم وأمجادهم ودمائهم، وكيف كان قادراً على إثارة حماستهم، وحقن دمائهم. وكان مرهوباً يُخشى بطش لسانه وغضبه. ويُرجى ابتسامه وانتشاؤه.
- إن قسماً كبيراً من إحساس شاعرنا بالأسى والحزن - بل والاغتراب - واليأس من الواقع الاجتماعي يعود إلى سيطرة هذه الوضعية الرائعة المثالية للشاعر العربي القديم على فكره، وتصادم هذه الوضعية مع الحال الراهن للشاعر - والمبدع عامة - الذي زوحم في مجده واستحقاقه للألق من قبل فئات اجتماعية وأنماط اجتماعية لا تطاوله في رسالته، وجهده، ومثاليته، ولا تصل إلى إبداعه، ومع ذلك نجحت هذه الأنماط في أن تنهش منه مكانه، وتزاحمه في دوره، وتخطف أنظار المجتمع إليها.
- انعدام المعايير والمقاييس هو ما يشتكي منه شاعرنا في ظل الظروف المعاصرة لمجتمعاتنا العربية التي منحت الأضواء والثقة والمجد والمال والتوقير للاعبي الكرة، والمغنين، والممثلين. ومن هم على شاكلتهم. ممن لا يقدمون سوى القدرة على ملء الفراغ بالوجبات السريعة من الإثارة والتسلية الرخيصة.
- في مثل هذا المناخ يختنق الإبداع، ويغتربُ المبدع. وينتحي الشعراء إلى المزيد من العزلة والانزواء، بمداواة كبريائهم المُدمَّى الذي تهادى من قمته السامقة إلى حيث القبول بالتنحي عن الطريق لمهرّجي المجتمع.
- تتصدر هذه القضية الاجتماعية كثيراً من قصائد الشاعر، وهو يطرح هذه الإشكالية بطرق فنية مختلفة. طرح جديد لإدانة المجتمع يُقدمه الشاعر على لسان الجنيّة في قصيدته (جنيّة الوكافة)، والتي يُصورها الشاعر قارئة لمستقبل واقعنا. مُنبئة بما يخيف.

يقول الشاعر وهو يصور الجنية في الصورة التي تمثلناها صغاراً:

«تمثّلت
أمام عيني
ذات وهم
في دخان المبخرة...
شمطاءُ بالرماد
والتراب
والـ (.....)
أسمالها معفرة...
جدائل
كالليل في سوادها
تجرُّ نصفها على
على الطريق
وهي كلّهُ مُضفرة...»

ويصور الجنية وهي تمسك بطفله الصغير تقرأ له المستقبل، ومن خلال هذه القراءة تكون الإدانة. مرة أخرى يتوسل شاعرنا برمزية الطفل ودلالته على المستقبل، يقول:

« مدّت إلى الصغير
كفها
أظفارها
كأنها الرماح
والخناجر
المنشرة...»

بهذا التصوير المخيف لملامح الجنية والذي يُثير الرهبة والفزع من الآتي، يسوق الشاعر كلماته الساخرة من وضعيّة الشاعر في مجتمعه، وتكون كلماتها في وصف الشاعر تعبيراً عن

obeikandl.com

رأي المجتمع في المبدعين. يقول:

«صرختُ
يا جنية (الوكافة)
اتركي الولد
قالت: صه
يا شاعر الأوهام
إن في إحدى يديّ
حربةً مسمومة
وفي يدي الأخرى
نسيجُ أكفان ومقبرة
يا شاعراً كالطيف
يقضي عمره
بين كتاب
لا يُطاق طوله
وبين أوراق
وأقلام. ومحبرة...»

تُصوِّر هذه الأسطر الشعرية رأيَ المجتمع في الشعراء، تُصوِّر ما يعتقده الشاعر من ازدراء المجتمع لنمط المبدعين. يبدو أن الشاعر في عين المجتمع نمطاً شاذاً. من خلال كلمات الجنيّة. يبدو كائناً خارج التاريخ، كائناً مُتْحفياً يثير الشفقة والسخرية معاً بإصراره على صورته النمطية وإيمانه بالثقافة والفكر، ومصاحبة الأوراق والأقلام، واكتفائه بهذه الصحبة.

بهذه الصورة الحالمة يعجزُ الشاعر عن الامتزاج في المجتمع، لذلك تصفه الجنية بأنه يعيش (كالطيف)، وكأنه وجود هلامي، أو وجود عابر في الواقع.

وتكمل الجنية إدانتها للواقع، فتجذبُ الطفل الصغير إليها، وتلقيه في قارورتها، وتحوله إلى فراشة بيضاء تحملُ صوته وصورته معاً، ثم تطرح رأيها في الواقع، وأناسه

العائشين في التزييف، تقول:

« قالت له في سجنه
دعهم على بهارج الضلال
والمشاعر المزوَّرة...
دعهم وسر معي
إلى فضاء
عامر بالصدق
والوفاء والإخاء
والحوائج الميسرة»

لقد طرح الشاعر إدانته للواقع من خلال الوعد الذي ساقه على لسان الجنية للطفل، فقد وعدته بعالم مليء بالصدق والوفاء والإخاء، والعيش الرغد الميسَّر، وعدته بعالم برئ من المشاعر المزورة... وهي بهذا الوعد تدين الواقع، وتصفه بانعدام هذه القيم فيه. وكأن الشاعر يصف يأسه من وجود هذه المثالية في عالم الإنس، فالحقها بعالم الجن والخيال والوهم.

وتكتمل إدانة الجنية للمجتمع، حين تنصح الطفل أن يكون من مهرِّجي المجتمع، ومن متقدمي التسلية الرخيصة العابرة ليحوز النجاح!. تقـــول:

إن كنتَ
تبغي الفوز
والنجاح
والغنى:
عليك
بالتمثيل
والغناء
والكُرة...
عليك
بالتمثيل
والغناء
والكرة...»[1]

(١) ديوان قطاف الشغاف / ص٨٤.

إن المستقبل في واقعنا الاجتماعي. ووفق هذه الرؤية. للمهرّجين لا للرائين الصادقين.

- وفي قصيدته (مساء الموت) لا يكتفي الشاعر بإدانة الواقع، وتحذير المجتمع من إظلام المستقبل، بل يُصور موت المستقبل، وموت البراءة والحلم من خلال موت طفل صغير جوعاً بين الجبال، دون أن تمتدّ يدٌ لتنقذه. يقول الشاعر على لسان الطفل:

" مساء الموت يا قومي
مساء النخوة العربية الأولى...
وقد شاهدتها تبكي
على أبنائها الجبناء كالثكلى
أأنتم يا بني قومي. بنو قومي؟
وقد نامت طوال الليل أعينكم
بلا حزن على ما حلّ بي
يا ويحكم خيبتم الأملَ...
لقد رسمت خطيئتكم
على وجه الشهامة
وصمةَ سوداء لا تبلى...»[1]

إن قضايا الواقع الاجتماعي مُتعددة الصور والوجوه في شعر حسن الزهراني. نقف عند وجوه أخرى من هذه القضايا في معرض تحليل ماهية اغتراب الشاعر، وماهية حزنه. كذلك نطالع جانباً آخر من هذه القضايا عند وقفتنا التحليلية لرمزية الطفل في شعره في الفصل الخاص بالصورة الفنية.

- لكنا نستطيع القول من خلال المواضع السابقة التي صَوَّر فيها الشاعر قضايا الواقع الإسلامي، والواقع الاجتماعي، وصَوَّر فيها الملامح الإسلامية والعربية لصورة البطل، وتغنى بالوطن، وحفر ملامحه في ذاكرة المكان والزمان.. نستطيع أن نقول إن انشغال حسن الزهراني بالواقع ليس انشغالاً عابراً، بل هو في صميم رسالته الشعرية، وهو من شروط الإبداع، ومن مهام الشعر أيضاً.

---

(١) ديوان تماثل / ص٨٨، ٨٩.

- يؤكد لنا هذا وصفه لدور الشعر في الحياة، وأنه مرتبطٌ بالفضيلة، ونشر الوعي، والأمل والحياة، كما يقول في قصيدته: "شلال سماوي". والشلال هنا هو الشعر:

"بالشعر...
نفتح للقلوب
نوافذاً بيضاء
تمتاحُ الضياء
معتّق الأنفاس
من شمس الفضيلة...
بالشعر...
نسمو بالنفوس
إلى مجرّات اليقين
ونغسلُ الشبهات منها
نرسم الآمال
بالكلمات
في مُقل الكواكب
نجعل الإخلاص
نوراً في الدروب
المستحيلة..." (١)

- الشعرُ في رأيه إنارة للحياة، ورسالته هادفة تنويرية، لا يجعله مصدراً للطرب والإمتاع والتسلية، بل لتسخيره ليكون مصباح البشر، يدعو إلى الفعالية في الحياة، يدعو إلى النماء والضياء، وبذا ينسجمُ رأي الشاعر في دور الشعر وقيمته، مع المفهوم الإسلامي للإبداع والفنون عامة، والشعر خاصة، حيث ارتهن كل سلوك إنساني في عقيدتنا بالغاية، والهدف، والإفادة.

يقول حسن الزهراني:

الشعرُ يشدو بما في النفس من أمل
كأنه في ظلام الكون مصباحُ (٢).

---

(١) ديوان أوصاب السحاب / ص٩، ٨.

(٢) ديوان قبلة في جبين القبلة / ص٦٦.

obeikandl.com